المحاضرة الثالثة :

الفكر الجزائري القديم (لوكيوس أبوليوس)

يعتبر أبوليوس من أبرز أدباء الأدب اللاتيني ،بل ان لم نقل ابرزهم وألمعهم من حيث غنى معارفه، وتنوع كتاباته، وبالخصوص الكتابات القصصية والروائية. إلى درجة أنه يعتبر ممثل السرد اللاتيني الأفريقي وحتى انه لقب بأمير خطباء أفريقيا وكان ذا نفوذاً وشهرة.

فإلى أي مدى كان لأبوليوس تأثيرا فكريا وايدولوجيا على الفكر الجزائري القديم ؟ وما هو الجديد الذي قدمه للتراث القديم ؟

ولد لوكيوس أبوليوس (أو أفيلاي في حوالي عام 125م، في مدينة مادور، والتي يطلق عليها اليوم مداوروش [1]في ولاية سوق أهراس، الجزائر. كان يطلق على نفسه أحيانا إسم "أبوليوس المادوري الأفلاطوني" و "الفيلسوف الأفلاطوني" في بعض المؤلفات الأخرى.

سافر بين مدن كثيرة وامبراطوريات عديدة ،كانت البداية منساموس وهيرابولس وروما عاصمة الإمبراطورية الرومانية ثم توجه نحو آسيا الصغرى وبلاد المشرق والإسكندرية في مصر، ثم استقرّ في أويا وهي مدينة طرابلس حاليا ، حيث مارسة مهنة الطب ،وهناك تعرف بفتاة من المنطقة إسمها " إميليا بودنتيلا "فأحبها وتزوجها ، لكن أهلها كانو معارضين لزواجها طمعا في الاستيلاء على ثروتها ،رموه بالسحر والشعوذة مما أدى إلى محاكمته في مدينة مصراته ،وكانت فرصة له ليجعل من مرافعته في المحكمة من اشهر المحاضرات في شرح تجربته في المجال الطبي والفيزياء ،فأصبحت نموذجا للمداخلات الادبية التي ذاعت شهرتها في منطقة افريقيا .

[1] هذه المدينة من أزهى المستعمرات الرومانية توجد بها جامعة هي الثانية بعد جامعة روما . ينظر عثمان سعدي .عروبة الجزائر عبر التاريخ .ش،و،ن،ت. الجزائر 1982 ، ص74.

سافر "أبوليوس" إلى قرطاج حيث استقر بها ،واشتغل في الكهنوت، حتى أصبح الكاهن الاكبر في قرطاج ، وكان "أبوليوس" يتقن اللغة اللوبية وبالإضافة الى معرفته للغة القرطاجية ،وقد كان يكتب ويخطب باللغتين الإغريقية واللاتينية. وقال عن نفسه : "أمبيدوقل ينظم القصائد، وأفلاطون يصنّف المحاورات، وسقراط يضع الأناشيد، وأبيكاروس يصنّف مشاهد التمثيل الإيمائي، وكسينوفون يؤلف القصص التاريخية، وغراتس يصنع الأهاجي، أما صاحبكم أبوليوس، فهو يجمع كل هذه الأصناف ويتعامل مع ربات الفنون التسع". يقول : "تعاطيت القدح الأول من عناصر الآداب فرفعني عن الغرار، وتعاطيت الثاني من عالم اللغة فزودني بالمعرفة، وتعاطيت الثالث من معالم الخطابة فدرّعني بالبلاغة، وعند هذا الحد يتوقف ما يتعاطاه أغلب الناس، لكني أنا أفرغت في أثينا أقداحا أخرى، قدح الشعر الممزوج، وقدح الهندسة الصافي، وقدح الموسيقى العذب، وقدح المنطق الحامض إلى حد ما، وتعاطيت قبل كل شيء قدح رحيق الفلسفة العامة الذي لا ينضب معينه)[1]"وقد انعزل أبوليوس عن الحياة العامة منذ 164، ولا تعرف نهايته على وجه التحديد" .

مؤلفاته

وأهم مؤلفات أبوليوس التي وصلتنا، نذكر:

1- كتاب الدفاع أو السحر، حيث يدافع عن نفسه بحرارة إثر اتهامه بالشعودة ويكشف القناع عن إحساس حاد بقيمه الشخصية. كما أنه سيرة ذاتية تمد القارئ بمعلومات عن قناعات واعتقادات الكاتب أبوليوس وموطنه أفريقيا خلال تلك الفترة. كل هذا يتم تحت قناع بلاغي من حيث التعبير يعرض فيه الكاتب للأنا الأمازيغية مقابل الآخر اللاتني-الإغريقي.
2- كما ترك لنا أبوليوس كتابا آخر هو" الفلوريدات " ، ويمكن ترجمة هذا العنوان إلي اللغة العربية ب "الورديات أو الزهريات "، وهي أنطولوجيا تضم مختارات من أعماله وندواته وخطبه. كما يجمع مناقشات شفهية في عدة مجالات. إنه بالأساس عبارة عن آراء كاتب مسافر باستمرار ،بالمعنى المادي والمعنوي لكلمة السفر.

[1] .مقدمة الحمار الذهبي. ترجمة . أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، ط 2006، ص 27 ،

3- كتاب التحول، وهو رواية ساخرة سماها " الحمار الذهبي" حيث يحكي عن الحب والنفس والآلهة والجن وعادات الإمبراطورية الرومانية.

4- كتاب حول إله سقراط يتطرق لعالم الأرواح والجن. شخصيات غريبة يقدمها الكاتب تجد مكانها في العالم الإلهي وعالم البشر. شخصيات من ثلاثة أنواع: أرواح داخل جسد، أرواح تحررت من الجسد وأرواح لم يسبق لها أن سكنت الجسد المادي. ورغم أن نص الكتاب يبحث عن الجوانب الروحية عند سقراط، إلا أنه دعوة صريحة للبحث عن الحكمة.

5- كتاب فلسفي حول مذهب أفلاطون يتعرض للأمور الأخلاقية والمادية. إنها قراءة مراوغة لمسألة الأخلاق عند أفلاطون.

6- كتاب يتعرض لعلم الفضاء وموضوع الدين. هنا يذهب أبوليوس إلى تقديم فكرته التي تفيد بأن الله أصل الحياة.

7- كتاب عن وحي سقراط.

8- كتاب عن العالم.

9- كتاب النوادر وهو مجموعة قصائد قصيرة.

10- كتاب أقاصيص يحمل مجموعة قصص ومغامرات وغرام.

11- كتاب قضايا الطبيعية.

12- كتاب الأسماك.

13- كتاب الاشجار.

14- كتاب الريف.

15- كتاب تطبيبات.

16- كتاب الفلك.

17- كتاب رياضيات.

18- كتاب الموسيقى.

فكره

كتب أبوليوس أول رواية في تاريخ البشرية بعنوان "الحمار الذهبي" أو عنوان "التحولات" (Métamorphoses) كما وجدت ترجمتها في الفكر الغربي، وقد قام الأديب الجزائري أبو العيد دودو بترجمتها إلى اللغة العربية بعنوان "الحمار الذهبي" وهي رواية تحكي عن تحول إنسان إلى حمار، روائي العصور القديمة الأول بلا منازع ومؤسس الرواية، ومعنى الرواية ليس بمعني السرد ولكن بمعنى ما تحتويه الرواية من بطل وأحداث وعقدة وشخصيات وفضاء وزمن. هذا الفن الذي صار بعد ذلك نمطا أدبيا متميزا عن غيره من الأجناس الأدبية وهو فن الرواية ،أعتبر هذا العمل أول رواية قديمة وصلت إلينا كاملة، وشكلت نوعاً أدبياً جديداً، وحملت هذه الرواية مجموعة من القصص يقوم الكاتب بحكايتها. وإن كان أبوليوس من شعب البربر بشمال أفريقيا إلا أنه ليس هناك من شك أن روايته استمدت روحها من أنفاس يونانية.

تعتبر رواية " الحمار الذهبي " عبارة عن محاكاة ساخرة في صيغة قصة تحكي مغامرات ، كانت متعلقت بالغيبيات والسحر. كتب أبوليوس روايته بحرية متناهية غير مقيد بالمعايير الصارمة، غير أنها لا تخلو من مشاهد القسوة والجريمة والغرابة والجنس المقنع من حين لآخر.

اعتمد الروائي أبوليوس على التصور اليوناني على أنه إطار لإضافة حكايات أخرى تتخلل خط الرواية الرئيسة. وقد اعتمد أبوليوس بالإضافة إلى المصدر اليوناني على المصدر الأمازيغي فيما يتعلق بالمعتقدات الوثنية لذلك العصر (الأعمال السحرية التي كانت في الشمال الأفريقي). وبالتالي فإن أبوليوس تجاوز المصدر اليوناني، عندما حل في نهاية

الرواية محل بطله، وتحدث فيها عن حياته الخاصة، ففصل بذلك الحدث الرئيسي عن مجراه واهتم بتمجيد عبادة الإلهة إيزيس التي كان يمجدها سكان شمال أفريقيا، حيث أن معاناة البطل عند أبوليوس تجد حلها في الأسرار المقدسة. وأسلوب الرواية مليء بالعبارات الشعبية والاقتباسات الأدبية القديمة، متوفر على المحسنات البلاغية وشيء من الشاعرية ومليئ بالمتعة، لذا خاطب أبوليوس القارئ في تقديمه للرواية قائلاً: انتبه ستنال حظك من التسلية!. نجد الروائي النمساوي فرانز كافكا قد نحى نحو أبوليوس الذي جعل من بطله مسخ في إحدى رواياته التي تحمل نفس العنوان التحول إلى صرصار بأكثر ابداعية..

لقد جعل ابوليوس من الرواية الطويلة وسيلة لكشف الأوضاع الإجتماعية وانتقادها في سخرية ، وطريقة ليكون صوت المستضعفين، سبلل موضوعات فلسفية، ومبشرا لنزعته الدينية التي تؤله الآلهة المصرية إزيس عوض المسيحية السائدة وقتها.

لقد قدم ابوليوس كتبا مهمة أثرت تاريخ اللغة اللاتينية بإفريقيا الشمالية خلال القرن الثاني من الميلاد. ويعد لوكيوس أبوليوس من المدافعين عن الخصوصية الأمازيغية الإفريقية المتعلقة حد الهوس بمعتقداتها وعاداتها في مواجهة الطقوس التي كانت تفرضها روما تمجيدا وتبجيلا وتعبدا للقيصر،وكذا في مواجهة المد المسيحي.

لا يعرف أي شيء عن وفاة أبوليوس: أين ومتى وتحت أية ظروف مات. لكن الأكيد هو أنه توفي حوالي 170 ميلادية قرب قرطاج.